السنة الثانية (دراسات نقدية)

المحاضرة الثانية: المنهج التاريخي

- **تمهيد:**

في سياق تطورها عبر مسار تاريخ طويل، قدمت لنا العلوم الإنسانية أدوات مهمة لدراسة النص الإبداعي؛ إذ يعد النص الحقل الأهم والأصل لاستعمال هذه الأدوات قصد سبر أغواره، وكشف أسراره.

وقد "تأثر النقد الأدبي بالعلوم الإنسانية التي داخلته؛ فأثرت في مناهجه، وفي توجيه دراساته وجهة معينة"، ولذلك كان من شروط الناقد الثقافة الواسعة، والإلمام بضروب من المعرفة والعلوم التي تعينه على الإحاطة بالنص، وتكون الأحكام حوله ذات قيمة، وفي ذلك وعي للنقاد بأثر الثقافة في توجيه النقد وأحكامه، وضبط آلياته ومقاييسه في قراءة النصوص، فهي تسهم بشكل أساسي في بلورة أدوات الناقد القرائية، كما يظهر هذا حاجة النقد إلى المعارف والعلوم المختلفة الأخرى، وتداخله معها، ولعل أكثر المناهج النقدية إظهارا وحاجة لثقافة الناقد المنهج التاريخي.

1- المنهج التاريخي: المفهوم والمعالم:

المنهج التاريخي للأدب هو: "المنهج الذي تتم فيه دراسة الأديب وأدبه، ودراسة النص في ضوء حياته وسيرته وبيئته، والظروف التي أثرت عليه؛ عن طريق معرفة عصره الذي عاش فيه، ومعرفة محيطه ومدى تأثير ذلك كله في نتاجه الأدبي، والتطلع نحو دراسة الأحداث العامة والخاصة التي مر بها الأديب؛ أي إن الأحداث التاريخية وشخصية الأديب يمكن لها أن تكون هنا عوامل مساعدة على تحليل النص الأدبي وتفسيره، ولهذا نرى أن هذا المنهج يعمل على إبراز الظروف التاريخية والاجتماعية التي أنتج فيها النص، دون الاهتمام كثيرا بالمستويات الدلالية الأخرى، التي يكشف عنها النص، ودراسة مدى تأثيره على القارئ".

فالمنهج التاريخي إذن يهتم بسيرة المؤلف ومراحل نشأته، وملابسات تأليفه، وبيئته؛ أي إنه يبحث في المؤثرات الخارجية لتأليف النص الأدبي، فهو نقد "لا يكون إلا خارجيا، نظرا لأنه يهتم بأصل النص أكثر من اهتمامه بطبيعته ومعناه، وهو يبحث عن حقيقة تحاول بالتحليل أن تبين إن كانت الوقائع المنطوية مطابقة للواقع التاريخي"؛ فهو منهج يقوم على نقد الوقائع والحقائق، بالاعتماد على جمع مصادرها خارج النص، ومن ثم صياغة فرضيات في قراءة النص وتفسيره وتحليله بناء على هذه المصادر.

ويعد المنهج التاريخي "أول المناهج النقدية في العصر الحديث؛ ذلك لأنه يرتبط بالتطور الأساسي للفكر الإنساني، وانتقاله من مرحلة العصور الوسطى إلى العصر الحديث، وهذا التطور الذي تمثل على وجه التحديد في بروز الوعي التاريخي".

ولذلك اهتم هذا المنهج بالمؤثرات التاريخية ودورها في إنتاج النصوص، بحيث "يتخذ من حوادث التاريخ السياسي والاجتماعي وسيلة لفهم الأدب ودراسة وتحليل ظواهره المختلفة، وتفسيرها؛ فهو يهتم بالسياقات الزمنية للنصوص ومنتجيها، ويعتمد على ما يشبه سلسلة من المعادلات السببية؛ فالنص ثمرة صاحبه، والأديب صورة لثقافته، والثقافة إفراز للبيئة، والبيئة جزء من التاريخ، فإن النقد تأريخ للأدب من خلال البيئة.

ويمكن القول إن المنهج التاريخي هو "منهج نقدي يركز على العلاقة المتينة بين العمل الأدبي والمجتمع الذي يتغير بفعل الزمن (...)، فهو منهج يقوم على إبراز الصلة بين الأدب والتاريخ؛ بمعنى أنه يربط النص وصاحبه بالبيئة والعصر والمجتمع، ويعنى بكشف جوانب العمل الأدبي من منظور الأحداث التاريخية والسياسية والاجتماعية المحيطة به، بل يذهب أبعد من ذلك في ربطه بالعصور التي سبقته؛ فإن سنة التطور الثقافي والاجتماعي والسياسي تجعل العصر يرث كثيرا من خصائص العصور التي سبقته، فيتأثر بها حتما عن قصد أو عن غير قصد، ولما كان الأدب هو رصد حياة أمة ما في زمان محدد ومكان بعينه، وكان التاريخ هو مادة هذه الحياة، كان التلازم الأدبي والتوافق الفني بين الأدب والتاريخ، وكانت الحاجة إلى معرفة التاريخ الفني للأعمال الأدبية".

ولذلك عد النص الأدبي وثيقة تاريخية؛ "فهو من مصادر فهم التاريخ ودراسته، إذ هو فياض بالمعلومات عن العصر الذي عاش فيه المؤلف، وعن معاصريه من الكتاب والحكام والأمراء والشخصيات المختلفة، إن العلاقة إذن بين الأدب والتاريخ هي علاقة وثقى"، وتبعا لذلك كانت معرفة التاريخ في الأدب، "لازمة لا غنى عنها لدراسة هذا الأدب، وتعرفه وفهمه وتفسيره"، فالتاريخ الذي يقوم عليه المنهج النقدي هو الذي يأخذ منه دلالات ارتباط الحدث بزمن، ومن ثم تقسيم الأدب إلى عصور، وصفات كل أدب من كل عصر، وعلاقة هذه الصفات بالصفة الغالبة للعصر – في منحاه السياسي الغالب عادة–

2– أعلامه:

أهم أعلام المنهج التاريخي في النقد الحديث: 'سانت بيف' (Sainte-Beuve)، و'غوستاف لانسون' (Gustav Lanson) و'فرديناند برونتيير' (Ferdinand Brunetière) و'هيبوليت تين' (Hippolyte Adolphe Taine)، ولكل منهم إسهامه الخاص في المنهج من حيث التنظير والتطبيق وطرح المبادئ

والعناصر والخصائص والمرجعيات المعرفية له، لكنهم يلتقون في الاتفاق على الأصل في المنهج وهو غايته وعلاقته مرجعيا بالأثر الأدبي؛ إذ يعدونه قراءة تاريخية في خطاب النقد الأدبي، تحاول تفسير نشأة الأثر الأدبي بربطه بزمانه ومكانه وشخصياته؛ أي إن التاريخ هنا يكون خادما للنص، ودراسته لا تكون هدفا قائما بذاته، بل تتعلق بخدمة هذا النص من كونه ينبه إلى أهمية ما هو خارج النص، ومعرفة سياقاته.

أ- سانت بيف (1804- 1869م):

بدأت ملامح المنهج التاريخي تتضح مع الناقد الفرنسي 'سانت بيف' في مقالاته الصحفية التي حاول فيها رسم الشخصيات التي ينقدها، ثم العمل على ترتيبها في مجموعات وفصائل تربطها روابط مشتركة، واستطاع بثقافته الواسعة وحدسه الشفاف ودقة ملاحظته أن يقدم تحليلات دقيقة ومقنعة لشخصياته في محاولة لاستكشاف العبقرية الفردية لكل أديب أو أديبة، وبذلك وظف الدرس الأدبي لاستكشاف شخصية المبدع، فكان نقده مقدمة علمية للنقد العملي الذي تبلور أكثر عند هيبوليت تين.

وقد دعا 'سانت بيف' "إلى دراسة الأدباء دراسة علمية تكشف عن صلتهم بعصورهم وأوطانهم، والوسط الاجتماعي والثقافي الذي يعيشون فيه وصفاتهم الشخصية وأمزجتهم الفنية ومناحيهم الفكرية (...) وبناء على ذلك يقسم الأدباء إلى فصائل تشبه النبات والحيوان؛ طبقا لما بين بعضهم من تشابه في الصفات والأمزجة الفنية، والمناحي الأدبية والفكرية"؛ إذ اهتم بدراسة الأدباء دراسة علمية تقوم على بحوث تفصيلية لعلاقاتهم بأوطانهم، وأممهم، وعصورهم وآبائهم وأمهاتهم، وأسرهم، وتربيتهم وأمزجتهم، وثقافاتهم، وتكويناتهم المادية والجسمية، وخواصهم النفسية والعقلية، وعلاقاتهم بأصدقائهم، ومعارفهم، والتعرف على كل ما يتصل بهم من عادات وأفكار.

يقول في ذلك: "إنني أحلل وأدرس البيانات دراسة علمية، أنا عالم العقول الطبيعي، إن ما أود أن أؤسسه هو التاريخ الطبيعي للأدب (...) إن العلاقة بين العمل والمؤلف – بما يكتنفه من ظروف عائلية وقومية، وحقبة تاريخية، وارتباط تلك الحقبة بالحقب الأخرى، بما يشكل دوائر ذات مركز واحد – أمر ضروري لعملية التقييم التي يقوم بها الناقد".

بحيث إذا تم الكشف عن ذلك كله في الأديب؛ أمكن للناقد التاريخي أن يميز بين الجماعي والفردي، ثم يصور علاقاته ببنية النص وتأثير الجماعة والعصر عليه.

ب- هيبوليت تين (1828- 1893):

الفيلسوف والمؤرخ والناقد الفرنسي الذي كان له أثر كبير في إرساء المنهج التاريخي في منتصف القرن التاسع عشر؛ إذ إن "جميع أفراد مدرسة النقاد التاريخيين التي ينتمي إليها تين – من أمثال ميشليه ورينان

وسانت بيف – انشغلوا بتفسير المؤلفات في ضوء مصادرها التاريخية، إلا أن تين كان أول من حاول أن يطبق تلك المبادئ تطبيقا انتظاميا على أوسع مدى في عمل مكرس تكريسا كاملا للأدب؛ ففي مقدمته لكتابه (تاريخ الأدب الإنجليزي) الذي نشره عام 1863م، ساق رأيه الشهير الذي يقول بأن الأعمال الأدبية ينبغي أن تفهم على أنها نتيجة أو محصلة ثلاثة عوامل متمازجة: العصر والجنس والبيئة"، وهي عنده:

– **الجنس أو النوع:** ويتعلق الأمر بمجموع الخصائص النوعية؛ فأدب أمة ما يختلف عن آخر بسبب تباين تلك الخصائص التي تعني لديه تأثير المناخ والتربة، والحوادث الجسام، والدوافع الغريزية، والعناصر الوراثية، والنزعات الدفينة والعادات؛ فهو يقسم البشرية إلى أجناس لها خصائص فسيولوجية ونفسية مختلفة كالجنس الآري والسامي.

– **البيئة:** تلك الأوضاع التي يخضع لها الإنسان؛ ويقصد بها البيئة الطبيعية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

– **العصر:** أو الأحداث التاريخية والوقائع التي تحدث في لحظة تاريخية معينة".

فهذه العوامل الثلاثة تعد قواعد لدراسة النصوص الأدبية التي لا يمكن للناقد التاريخي في دراسته للأثر الأدبي تجاهلها.

لقد كانت نظرية 'تين' خطوة كبيرة في دراسة الأدب بربطه الظاهرة الأدبية بالمجتمع إذ جعلها تصدر وتعبر عنه، فالعناصر الثلاثة هي مكونات المجتمع الأساسية، وهكذا عد الأدب تعبيرا عن المجتمع في سيرورة زمنية محدد، بيد أن هيبوليت تين قد أطال الكلام عن فرنسا والعرق والبيئة، وذلك عنده البرهان على أن النقد التاريخي ينطلق دائما من أبعد المعارف عن النص، لكن هذا العمل جعل النقد التاريخي يحوم حول النص دون أن يصل إلى جوهره.

ج– فرديناند برونتيير (1849– 1906م):

وهو الناقد الفرنسي الذي آمن بنظرية التطور لدى داروين (1809–1906) وأنفق جهودا معتبرة في تطبيقها على الأدب، متمثلا الأنواع الأدبية كائنات عضوية متطورة، فكما تطور القرد إلى إنسان تطور الأدب كذلك من فن إلى آخر، وقد ألف كتابه (تطور الأنواع الأدبية) سنة 1890 على غرار كتاب (أصل الأنواع) لداروين؛ حيث رأى أن الآداب تنقسم إلى فصائل أدبية مثلها مثل الكائنات الحية، وأنها تنمو وتتأثر متطورة من البساطة إلى التركيب في أزمنة متعاقبة حتى تصل إلى مرتبة من النضج قد تنتهي عندها وتتلاشى وتنقرض كما انقرضت بعض الفصائل الحيوانية.

ويرى برونتيير تبعا لذلك أن كل جنس أدبي له زمان خاص به يولد وفيه ينمو ويموت، فله حياة خاصة به على امتداد زمني ولهذا فهو يدرس هذا الجنس الأدبي من منظور علاقاته مع مختلف الأجناس، تبعا لحركة الزمن الذي عاشه، وهذه العلاقات في رأيه تتوزع مفاهيمها التاريخية والفنية والعلمية.

وبذلك تقدم الناقد فردينان برونتيير بالمنهج التاريخي خطوات، فهو يذهب إلى أن موضوع النقد هو الحكم على الأعمال الأدبية وتصنيفها وتفسيرها، وتتم عملية التفسير عنده من خلال تحديد علاقات مصنف ما مع تاريخ الأدب العام ومع قوانينه الخاصة، ومع البيئة التي ظهر فيها وأخيرا مع كاتبه، والأمر المهم في إسهام برونتيير أنه يستلهم نظرية داروين في تطور الجنس البشري لكي يقيس عليها تطور الشعر الغنائي بفرنسا في القرن التاسع عشر، محاولا البرهنة على أن الأدب يتطور مثلما يتطور الجنس البشري، نتيجة لعوامل وراثية متتابعة؛ ومن ثم يتطور الشعر الغنائي عبر مراحل أولها الشعر الديني، وآخرها الشعر الوجداني العاطفي.

فهو كسابقيه في اتجاهه الاتجاه العلمي التجريبي الذي تناول الأدب بمنظور تاريخي، لكنه كان متكئا أكثر على نظرية داروين، التي من شأنها قسمت الأنواع الأدبية الى فصائل شبيهة بالفصائل الحيوانية.

د- غوستاف لانسون (1857- 1934م):

أصبح المنهج التاريخي يسمى باللانسونية نسبة لغوستاف لانسون؛ الذي يرى أن منهجه هو في صميمه المنهج التاريخي، ويعد رائد المنهج التاريخي في الأدب، بتحديده للطرق التي يتم بها توثيق النصوص والمسالك التي تكشف السببية الأدبية، وإن أهم ما أنجزه لانسون يتمثل في مصنفه المهم (تاريخ الأدب الفرنسي) الذي صدر سنة 1894م، ورأى فيه أن الأدب الفرنسي يمثل مظهر للحياة القومية الفرنسية التي تنصب في بوتقتها كل التيارات الفكرية، والمشاعر، والأحداث السياسية والاجتماعية وغيرها.

أما كتابه (منهج البحث في الأدب) فهو الكتاب الذي "نستطيع أن نتبين الخطوط الأساسية للمنهج التاريخي في دراسة الأدب ونقده فيه؛ فقد كان هذا الكتاب البلورة العلمية الأخيرة للمحددات الأساسية في المنهج التاريخي للأدب".

وهي الأسس النظرية للمنهج التاريخي، ثم الخطوات العملية، فالصعوبات؛ والأسس النظرية تتكون عند لانسون من جملة من المبادئ التي لا بد أن يأخذ بها الباحث لكي يكون عمله علميا ومناسبا لطبيعة الأدب في الوقت نفسه، وأهمها: الأخذ بالروح العلمية التي لا تسلك صرامة المنهج المستمد من العلوم التجريبية ، لكنها تكسب العمل النقدي ثبات المعرفة العلمية دون التوغل في المعادلات العلمية، والخطوط البيانية، التي

تضفي هالة كاذبة من النتائج غير الثابتة لعدم ثبات الأدب نفسه، فالروح العلمية لا تكمن إذن في الأخذ بمناهج العلوم الأخرى، وإنما في الأخذ بروحها، ثم المزج بين الذوق والمعرفة وهما في الحقيقة أساس اللانسونية، حيث جمع بهما بين النقد العملي والنقد التأثري.

3- مظاهره وخصائصه:

للمنهج التاريخي مظاهر وتجليات في مجالات عدة أهمها:

– تحرير النصوص: أي التأكد من مجموعة أمور تتعلق بها، من ذلك صحة نسبتها إلى أصحابها، والتأكد من صحتها، وخلوها من التشويه والتحريف، أو الزيادة والنقصان، وتحقيق تاريخ النص أو زمان تأليفه، والمرحلة التي ينتمي إليها.

–دراسة الأدب في عصر معين: أو دراسة الحركة الأدبية في عصر معين، لتبين خصائصها العامة، وما أضافته إلى ما قبلها، ووضع هذه الحركة في سياقها التاريخي العام، وبيان موقعها من تاريخ الأدب، مما يساعد على إدراك التطور الذي أصاب الأدب في هذه الحقبة المدروسة.

– دراسة فن معين من فنون الأدب في حقبة تاريخية معينة، أو اتجاه معين من اتجاهات هذا الفن، أو مدرسة من مدارسه الفنية أو الفكرية.

– دراسة أديب من أدباء عصر معين، وبيان ملامح أدبه من خلال الاستعانة بسيرته، وملابسات عصره، وظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

– دراسة نص من نصوص الأدب، وتلمس خصائصه، بالاعتماد على تاريخ هذا النص، ومناسبة تأليفه، وحياة كاتبه، وظروف نشأته، وما شاكل ذلك من عوامل خارجية.

– المقارنة بين النصوص الأدبية لتمييز الأصالة من التقليد فيها، والجديد من المتناول المبتذل.

– تصنيف النصوص في مدارس وأنواع ومذاهب، بالاستعانة بما تم من مقارنات وموازنات.

وفي كل ذلك:

– "يلتزم المنهج التاريخي عند دراسة العمل الأدبي الموضوعية، وذلك بسبب اعتماده المبالغ فيه على الحقيقة التاريخية التي هي وليدة الموضوعية.

– النقد التاريخي هو نقد تفسيري؛ ينظر إلى العمل الأدبي على أنه واقعة معينة، ويحاول تفسيرها. والنقد التاريخي كذلك نقد قيمي حكمي، وقيمة الأدب عنده في كونه وثيقة تاريخية، تقدم صورة للعصر، وتعكس حركة التاريخ والمجتمع.

– إن الأدب في هذا المنهج التاريخي ليس عالما مستقلا بذاته، ولا يشكل وحدة قائمة بنفسها، ومن ثم لا يمكن فهمه أو التعامل معه، أو التعمق في درسه من غير ربطه بالعوامل التي شكلته، لا بد عند درسه من استحضار جوه التاريخي، أي لحظات تكوينه، وإطاره الزمني.

– يهتم النقد التاريخي بمضمون العمل الأدبي، ويعول على هذا المضمون كثيرا، لأنه ينظر إلى الأدب على أنه وثيقة مهمة تعين على فهم التاريخ والمجتمع، وهي حافلة بالمعرفة والخبرة والأحداث المختلفة؛ فالنقد التاريخي إذن نقد مضموني.

أما خصائصه فيمكن رصد أهمها في النقاط الآتية:

- الربط الآلي بين النص الأدبي وسياقه الخارجي (التاريخ)، واعتبار الأول وثيقة للثاني؛ بحيث يتعامل مع النصوص المدروسة على أنها مخطوطات بحاجة إلى توثيق.
- الاهتمام بالمبدع والبيئة الإبداعية على حساب النص الإبداعي.
- التركيز على المضمون وسياقاته الخارجية، مع تغييب واضح للخصوصية الأدبية للنص.

4- النقد التاريخي عند النقاد العرب:

تعد نهايات الربع الأول من القرن العشرين بداية النقد التاريخي في الأدب العربي، بفضل عدد من النقاد الذين تتلمذوا بشكل أو بآخر على يد رموز المدرسة الفرنسية، وعلى رأس هؤلاء النقاد نذكر 'طه حسين' وهو من أبرز من استخدم هذا المنهج، لاسيما في كتابيه (حديث الأربعاء، وتجديد ذكرى أبي العلاء)، و'أحمد ضيف' (1880–1945م) الذي يمكن عده أول متخرج عربي في مدرسة غوستاف لانسون الفرنسية.

على أن محمد مندور (1907– 1965م) يمثل الجسر المباشر بين النقدين الفرنسي والعربي؛ فهو أول من أرسى معالم اللانسونية في نقدنا العربي حين أصدر كتابه (النقد المنهجي عند العرب) مذيلا بترجمة لمقالة (لانسون) الشهيرة (منهج البحث في الأدب) عام 1946م، ومنذ الستينات أخذ النقد التاريخي يزدهر في كثير من الجامعات العربية على يد رموزه أمثال: شوقي ضيف وسهير القلماوي وعمر الدسوقي في مصر، وشكري فيصل في سوريا، ومحمد الصالح الجابري في تونس، وعباس الجراري في المغرب، وبلقاسم سعد الله وصالح خرفي وعبد الله الركيبي في الجزائر.